حلم فلسطيني

قصة بقلم رشاد أبو شاور

نبتوا من الارض ، ورغم ان هاماتهم ظهرت الا ان اقدامهم كانت ما تزال مدفونة في التراب .

الليل زرقة رمادية ، عتمة تتناثر بين القبور ، لبسوا اجسادهم. عظامهم كانت تصطك . كانت أيديهم قد اخذت تنفض التراب عن ابدانهم .

حدث نفسه :

لست مجنونا ، انا هو انا ، يقظ تماما . تلك هي الاضواء النائمة في بيوتات المخيم ، اصوات ارتطام عظامهم اخذت تصك مسامعه ، وداخله خوف وعلى جبينه سال عرق بارد . واذ مد يده الى جبينه رفع رأسه قليلا . انهم يصعدون من الارض مثل اشجار كبيرة تتكون في لحظات . أصوات ابواق السيارات تأتي اليه قوية وواضحة. زخات رصاص غير محدد الجهة .

الطفلان رآهما جيدا ، سبحا في الهواء ، حلقا فوق راسه ، ثم دارا ببطء ، وكانا ينزفان دما وصار للفضاء لون دام اغبر .

فلماذا ؟

انهالت القذائف على البيت ، كانا جالسين في زاوية الفناء ، امهما تركتهما وراحت تطرق ابواب الدور بحثا عن بعض الماء لتسكت به ظماهما .

لماذا ؟

وكان الغبار قد انعقد فوق الدور المجاورة والشظايا تطايرت وازت عابرة .

وكنا قد التصقنا بالارض .

وجاء صوت العراقي :

ـ ادخلوا الى الملجأ . القصف كثيف .

وصرخت المرأة . وكان لحمهما قد التصق بالجدران وامتزج اللحم والدم والغبار وتحطمت النوافذ والابواب ، طوحت بالابريق بعيدا .

حاولنا ان نمنعها لكنها دفعتنا وارتمت على بقاياهما ، واذ رفعناها عن مزقهما كان الدم ونثار اللحم قد التصق بثوبها عند الصدر . وجاءت تئز مارقة على ارتفاع منخفض فوق البيوت المحاذية للمقبرة شرقي المخيم وصرخت به :

ـ انتبه .

ارتمينا بسرعة ، وحين رفعت راسي رأيتها على بعد حوالي مترين نصفها الاعلى يتوهج ويتطاير منه الشرر والدخان ونصفها الاخر هامد ازرق رمادي . وامتلأت السماء فوق باللون الاصفر . ومرقت رصاصات حمراء متلاصقة راسمة خطا متقطعا ووراءها صوت هادر ببطء .

وقفزنا .

ـ كنا سنهلك ، نستحيل الى رماد ، لكنها لم تنفجر .

ـ كم مرة لاقينا الموت هذا النهار ؟

ـ انت اليوم تتصرف بجنون ، يبدو لي وكانك تركض وراء الموت.

ـ ولماذا الحذر ما دام الموت في كل مكان ؟!

ـ قصدت : يبدو وكانك تريد الذهاب الى الموت باقصى سرعة .

وسرنا بين الازقة والموت .

جمعوا لحمهما في بطانية ، كانت المقبرة قريبة (الفلسطينيون دائما مقابرهم قريبة من اماكن سكنهم . ان بيوتهم تنتشر حول مقابرهم ربما كي لا يشعر موتاهم بالغربة والوحدة ، ربما كي يدفنوا موتاهم بسرعة ...) .

ماع الضوء الاصفر في السماء ، اطلق عليه بعض الشبان الرصاص من بنادقهم ، جاء صوت مرتفع :

ـ لا تطلقوا النار ، يريدوننا ان نفقد ذخيرتنا ..

امامه يستلقي على ظهره ، راى الاحشاء تندلق على حافة البطن، كادت قدمه تنزلق ، تطلع . جسد رجل ميت رأسه المسحوق متناثر ويده مكشوطة حمراء تخثر عليها الدم .

ما اكثر الموتى ! انهم ينفلون في الضوء الاصفر ونحن نتحرك فوق اجسادهم : لا مجال لدفنهم الآن .

فمي جاف ، رأسي يدور ، اني بحاجة للماء ، فقط الماء .

زوجتي بعيدة ، تركتها حبلى ، لو دخلوا هناك لقتلوها ولكن ماذا ؟ لن يتمكنوا من الدخول . طمأن نفسه .

الحرائق تنتشر في كل مكان ، ودخان الحرائق يلتقي في السماء ويصنع سقفا من اللون الاسود الكثيف .

اخذنا ندحرج الحجارة الثقيلة من امام احدى البنايات التي لم يكتمل بناؤها ، كان (ابو حميد) العراقي يكسر اغصان الاشجار من امام احدى البنايات ، قال ضاحكا :

ـ نحن بحاجة لها للقتال ، اما هم فيحتاجونها للزينة .

ـ السادات تعرقل تقدمهم ، لكنها لن تمنعهم نهائيا ، سيظنون انها ملغومة .. فلنخدعهم .

استندت الى الجدار ، شعرت بالدوار ، كدت اسقط ، لكنني تمالكت نفسي وقررت ان اعود الى المكتب كي ارتاح قليلا . كان سلاحي معلقا برفبتي ، ومع اهتزاز بدني كان يرتطم بصدري .

اشعلت عود كبريت ، رأيته مستلقيا في السرير يغط في سبات عميق . لكزته بكعب البندقية في كتفه :

ـ افق !

فتح عينيه قليلا . كانتا محمرتين ، ووجهه اصفر فيه خوف وقلق:

ـ ها لم أنم بعد .

امتلأ صدري بالغضب وصرخت به :

ـ اذهب نم في حضن امك يومين . نحن نواجه الموت وانت نائم، وكان شيئا لا يحدث .

جاء ابو محمود :

ـ هذا ليس وقت تفجير الصراع .

قلت :

ـ يريد ان يكون مسؤولا فقط ...

انه لا يجيد القتال ، يجيد ان يكون مسؤولا ، ونحن يجب ان نموت . ليذهب الى الجحيم اذا كان لا يريد ان يقاتل معنا .

ربت ابو محمود على كتفي مهدئا . ابتسمت رغما عني ، ارتميت على السرير والالم يسري في جسدي وعروقي كلها تنبض متوترة ، وملأت انفي رائحة التراب والدخان وعرق الاجساد .

افقت .

ـ صاحبك مات !

ـ من ؟

ـ زهير ... انت السبب : لو انك لم تتشاجر معه لما حدث له ذلك .

واذ رأى اني غير مهتم للامر اضاف كي يؤكد الخبر :

ـ كانوا قد احتلوا « الدوار » . لم يعرف ذلك واتجه الى بنايتهم هناك لكنهم صرعوه قبل ان يصل .

ابتسمت بلا ارادة وبلا شماتة .

ـ مات نائما . كان منهارا منذ اللحظة الاولى للقتال .

الصباح رمادي فيه لذعة برد ، اصوات الاشتباكات تاتي من مناطق بعيدة ، لكن القصف المدفعي يهز الارض .

ـ اصيب عباس في فخذه ورفض ان ناخذه الى بيت طبيب نعرفه. وانهالت القذائف متلاحقة فاهتز البناء .

ـ اخرجوا من البناء ، توزعوا في الاماكن المجاورة ..

اصابت قذيفة الطابق الثاني ، فتحت ثغرة في الجدار وتناثر الزجاج وشظايا الطوب .

رأيتهم يخرجون وعباس الغزاوي فوق ايديهم المتشابكة ووجهه صامت والدم يلوث بنطاله . أشرت له مشجعا فابتسم ..

وبدات الغام العراقي تنفجر . قفزت من فوق الجدران . لم تكن الرؤية واضحة بسبب حجب الدخان للاشياء .

صار رأسي بحجم الارض ، وكانوا يركضون والنداءات تتلاطم امواجا . لا تدعوهم يتقدمون . اين حاملو المضادات ؟!

واستمر الجحيم والشمس ترتفع ورأسي يكبر وصدري كانه يتخلع. وخرج الرجال من وراء المنعطفات والازقة ومداخل البنايات واخذوا يطلقون من اسلحتهم الفردية .

اصبتها !

صرخ (ابو العبد) بلهجته السورية ولقم القاذف بواحدة اخرى خضراء مقدمتها مدببة وعنقها مستطيلة .

خرج احدهم زاحفا من تحت الدبابة وكانت النيران قد اخذت تلتهمها . اخذ يتدحرج وصراخه المفزع الرهيب البشع يرتفع. وسكن اخيرا في جحيم من الرصاص .

ـ ولدته في الملجا !

قال ابي :

ـ انه يشبهك .

لم نعطه اسما . قلنا ننتظر حتى يأتي والده .

قلت في نفسي « صرت أبا ، ولكنه بلا أم . هكذا تبدأ حياته »

ـ كل رفاقك الذين عادوا لم يعطونا عنك اجابات واضحة ، وساورتنا الظنون انك ....

وازدردت امي تتمة العبارة .

رأسي مليء بالدخان والنار والموتى والغضب . الرجال يقفزون امامي وحولي . يسقط بعضهم لكنهم من شقوق البيوت ، من الارض من الدم يطلعون .

ـ وظلت تنزف حتى ماتت . لم نجد احدا يسعفها .

امي نظراتها ساهمة وبكاء الطفل يعلو اقوى من بكاء أي طفل شاهدته في حياتي ... وخرجت .

وكان الرجال والنساء الذين التقي بهم يمدون اليّ ايديهم مواسين وكأنما لم يحدث لهم شيء وكأنما لم يمت لهم احد ..

رأيتهم ينبثقون من التراب في الصمت والضوء الرمادي ، وتحسست رأسي ، فامتلأت أصابعي بالدم واوراق الاشجار الخضراء وحبات العرق .

لست مجنونا ، انني ادرك الآن اكثر من اي وقت مضى ، انني انا ولست انسانا آخر هذا الجالس في المقبرة يتحدث معهم ويتحلقون حوله ويتطايرون في فضاء المخيم فوق رأسه وصراخ الطفل يعلو ... ويعلو ... ويعلو ... حتى يصك الاسماع . وأتذكر في انشداهي انني لم أنظف البندقية وان عليّ أن أجهزها .

وكانت أضواء المخيم النائمة تأتي خافتة وهم يخرجون من التراب ويسألون :

ـ ونحن لماذا نترك هكذا ؟!

وكان المخيم يحتضن المقبرة وامتلأت بضوء الصباح الآتي .

رشاد ابو شاور

صدر حديثاً

أرفع يدي احتجاجاً

للشاعر

فوزي كريم